

ملخص

يتطرق هذا المقال إلى موضوع العلاقات السياسية بين الدولتين الزبانية والحفصية، هاتين الدولتين المتجاورتين، اللتين قامتتا بعد سقوط الدولة الموحدية في المغرب الإسلامي سنة ١٢٦٩م، فقد عرفت العلاقات السياسية بينهما توترًا واضطرابًا طوال مدة وجودهما، كما يتناول هذا البحث العوامل التي ساعدت في سوء أو حسن تلك العلاقات، إضافة إلى الغوص في طبيعة الأحداث التاريخية التي عرفتھا الدولتين من خلال دراسة الصراعات بينهما والتي أدت إلى سيطرة الدولة الحفصية على الدولة الزبانية في عدة مرات، لكن طول هذا الصراع لم يمنع الزبانيين من محاولة فك قيود السيطرة الحفصية إلى أن تم لهم ذلك في عهد أبي تاشفين. ومن خلال دراسة الموضوع برزت نتائج عديدة منها أن وقوع الدولة الزبانية في موقع الوسط بين الحفصيين في الشرق والمرينيين في الغرب جعلها محط أطماع الدولتين، حيث خضعت مرات كثيرة للسيطرة المرينية، لكن هذا كله لم يؤثر على الجانب الثقافي والعلمي في المغرب الإسلامي، حيث كان العلماء وطلبة العلم يتنقلون بكل حرية بين هذه الأقطار، نظرًا للاهتمام الكبير الذي كان يوليه هؤلاء العلماء للعلم وأهله.

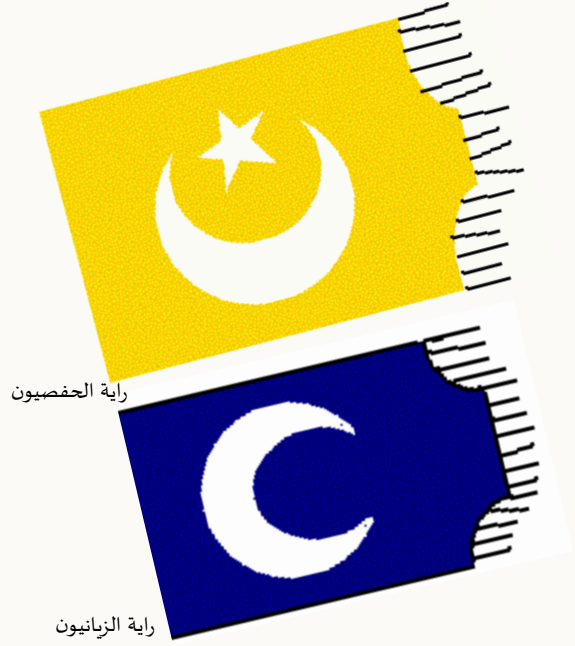
مقدمة

إن الدارس لتاريخ المغرب الإسلامي لابد له من الإلمام بجميع الجوانب المتعلقة بهذا القطر من العالم الإسلامي في العصر الوسيط، فالدراسة التاريخية يجب أن تشمل جميع الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية حتى يمكننا تحليل وتفسير الأحداث التاريخية وفق منظور علمي وأكاديمي بحث، ومنه فإن دراسة تاريخ الدولتين الزبانية والحفصية لا يتم ولا يكتمل دون التطرق إلى العلاقات التي كانت بينهما. لذلك سنحاول من خلال هذا المقال البحث في موضوع العلاقات السياسية بين الدولة الزبانية والحفصية مركزًا على الجوانب التالية:

- ١- طبيعة العلاقات السياسية.
- ٢- العوامل المتحكمة في العلاقات.
- ٣- الصراع السياسي بين الدولتين.
- ٤- نتائج وآثار ذلك الصراع.

يتمحور الموضوع حول الإشكالية التالية: ما مدى تأثير العلاقات السياسية الزبانية الحفصية على الجوانب الأخرى في الدولتين (الاقتصادية والثقافية) ؟ وللإجابة عن هذه الإشكالية اتبعت الخطوات التالية:

- طبيعة العلاقات السياسية بالتطرق إلى العوامل التي ساهمت في تطور العلاقات بينهما وميزتها قبل ظهور الدولتين عقب سقوط الدولة الموحدية.
- التبعية الزبانية للحفصيين في عهد السلطان الزباني يغمراسن بن زيان، وابنه عثمان الأول.



العلاقات السياسية بين الدولتين الزبانية والحفصية

عبد الله طويلب

قسم التاريخ وعلم الآثار
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة أبي بكر بلقايد - الجمهورية الجزائرية



الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد الله طويلب، العلاقات السياسية بين الدولتين الزبانية والحفصية- دورية كان التاريخية- العدد الثامن عشر؛ ديسمبر ٢٠١٢. ص ٣١ - ٣٤.

www.kanhistorique.org

ISSN: 2090 - 0449

خمس أعوام من الدراسات التاريخية ٢٠٠٨ - ٢٠١٢

السعيد على التمركز نحو إفريقية للقضاء على الدولة الحفصية في نهاية ٦٤٥هـ/١٢٤٧م.^(٤)

(٢) النبعة الزبانية للحفصيين

يبدأ الولاء الزباني للحفصيين من الاتفاق الشهير الذي تم بين والدته يغمراسن "سوط النساء" وأبي زكريا،^(٥) واغتنتم والدة يومئذ الفرصة وقدمت للسلطان اقتراحاً يتضمن طلب العفو عن يغمراسن والسماح له بالعودة إلى رئاسة قومه من بني عبد الواد تحت طاعة الخليفة، فقبل أبو زكريا ذلك كله بشروط تمت بينهما وعاد يغمراسن إلى تلمسان،^(٦) ورغم ذلك لم يكن أبو زكريا يثق في يغمراسن فأثناء عودته إلى تونس أسس إمارات من بني توجين ومغراوة ونصب على رأسها أمراء بمراسيم سلطانية وأغدق عليهم من الأموال ما غمرهم به وجعلهم حاجزاً بينه وبين خصومه ومنافسيه، حيث كانوا دعماً وسنداً للدولة الحفصية.^(٧)

رغم وفاة أبي زكريا الحفصي يوم الجمعة ١٢ جمادى الثانية سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م فإن الزبانيين بقوا متمسكين بولائهم للحفصيين، فكانوا يرسلون أبناءهم وكبار رجال الدولة لتأكيد ذلك، كما استمر ولاء الإمارات التي أوجدها الحفصيون في المغرب الأوسط، غير أن المستنصر الحفصي اضطر إلى تجهيز حملة ضد مدينة مليانة إعادة إخضاعها للنفوذ الحفصي سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م، لكن لم يلبث الزبانيون أن استولوا عليها سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م ثم خرجت مدينة الجزائر على الحفصيين سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م.^(٨) استغل بنو زيان الظروف التي طرأت على الدولة الحفصية خاصة بعد الحملة التي شنها الملك الفرنسي لويس التاسع على تونس وحاولوا توسيع نفوذهم في المغرب الأوسط.^(٩)

بعد وفاة يغمراسن خلفه ابنه عثمان (٦٨١- ٧٠٣هـ/ ١٨٣- ١٣٠٣م)^(١٠) الذي اتبع سياسة سلمية مع المرينيين عملاً بوصية أبيه رغم علاقة المصاهرة التي كانت بين الملك الزباني وأبي إسحاق إبراهيم الحفصي. وبعد وفاة أحمد بن أبي عمارة الحفصي سنة ٦٢٣هـ/ ١٢٨٤م ارتحل أبو زكريا يحي خفية إلى بجاية استولى عليها في نفس السنة فانقسمت الدولة الحفصية إلى قسمين : القسم الشرقي عاصمته تونس والقسم الغربي عاصمته بجاية، وحاول أبو زكريا الاستيلاء على تونس وقابس لكنه فشل في السيطرة عليهما مثلما فشل في الدخول إلى مسرارة شرق طرابلس على الرغم من التأييد الذي لقيه من قبائل المنطقة، وفي ظل هذه الظروف وفي غياب أبي زكريا الحفصي حاصر الزبانيون مدينة بجاية سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م وجددوا بيعتهم أبي حفص عمر بتونس.^(١١)

ومما يلاحظ على نشاط الزبانيين في القسم الغربي من الدولة الحفصية هو في الحقيقة عمل بالوصية^(١٢) التي تركها يغمراسن بن زيان لولده عثمان، وهذا ما يثق له محمد بن أبي زكريا يحي بن المستنصر المشهور بأبي عصيد الذي سارع بعد توليه الحكم إلى إعادة بسط النفوذ الحفصي على القسم الغربي وأيد الحصار الذي

• محاولات تخلص بني عبد الواد من السيطرة الحفصية مستغلين الفترات التي عرفت فيها الدولة الحفصية اضطرابات داخلية.

• استقلال الدولة الزبانية عن بني حفص والذي تم بعد محاولات زبانية عديدة للقضاء على التبعية للحفصيين حيث تم لهم ذلك في أبي تاشفين.

لدراسة هذا الموضوع اعتمدت على مجموعة من المصادر أهمها: كتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون خاصة الجزء السادس والسابع، فهو مصدر أساسي لأنه عايش هذه الأحداث وكان يشغل في بلاط الحكم في الدولتين. كتاب نظم الدر والعقيان للحافظ أبي عبد الله التنسي، هو من أهم مصادر تاريخ بني زيان خاصة الجانب المتعلق بنسب الملوك وشخصيتهم العلمية والحربية، إذ يعطينا صورة واضحة عن سياسة ملوك الدولة الزبانية. بالإضافة إلى مصادر ومراجع أخرى لا تقل أهمية عن السالفة الذكر. وقد اعتمدت في دراسة الموضوع على المنهج التاريخي، إضافة إلى منهج أخرى مثل المنهج التحليل من خلال تحليل الأحداث التاريخية، والمنهج الإستنتاجي بالوصول إلى النتائج المترتبة عن هذه الروابط بين الدولتين.

(١) طبيعة العلاقات الزبانية الحفصية

تميزت العلاقات بين الدولتين بالصراع إذ سعت كل دولة إلى الاستحواذ على أكبر قسم من الدولة الموحدية وتوسيعه إلى حدود تأمن منها خطر جارتها،^(١) وتأثرت العلاقات بين الدولتين بعوامل خارجية وبالأحداث التي عرفتها بلاد المغرب، إضافة إلى الأوضاع الداخلية المتغيرة داخل كل دولة.^(٢) فقد سعى أبو زكريا الحفصي إلى الاستيلاء على الدولة الزبانية، خاصة بعدما تمكن يغمراسن من توطيد العلاقات مع الدولة الموحدية، إذ تبادل معهم السفارات وتلقى الهدايا من الخليفة الرشيد الموحدي، هذا زيادة على الدور الذي لعبه شيوخ قبائل المغرب الأوسط، حيث اتصلوا بأبي زكريا الحفصي وحرصوه على التحرك نحو تلمسان.^(٣)

وهذا ما تم بالفعل، فقد شن أبو زكريا الحفصي حملته العسكرية على تلمسان انطلاقاً من العاصمة تونس سنة 639هـ/ ١٢٤١م^(٤) فوصلها في أواخر شهر محرم سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م. وتمكن من قهر الجيش الزباني الذي تصدى له أمام المدينة ثم دخلها، أما يغمراسن بن زيان فقد أفلت من الحفصيين ولجأ إلى الجبال المجاورة لتلمسان مع عائلته ومجموعة من أنصاره. وفي طريق عودته نصب أبو زكريا الحفصي شيوخ القبائل الزبانية في المغرب الأوسط (مغراوة وتوجين) على أوطانهم، بشرط أن تكون تبعيتهم المباشرة للحفصيين، وبهذا العمل يكون أبو زكريا قد وضع حاجزاً بشرياً يفصله عن الخطر الموحدي في مراكش، وأخضع الزبانيين للحفصيين إلى أن عزم الخليفة الموحدي أبو الحسن

نواحي بجاية لمعاينة الحصار المضروب عليها عن قرب.^(٢٢) لقد مكنت هذه الحملات المتعددة الجيش الزياني ولأول مرة من دخول مدينة تونس سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م وسلمت مقاليد الحكم لابن أبي عمران لكن سرعان ما استعادها السلطان الحفصي في شهر رجب من نفس السنة، ولوضع حد لمثل هذه الحملات استنجد السلطان الحفصي بأبي سعيد السلطان المريني فعقد الطرفان اتفاقية مواجهة الزيانيين.^(٢٣)

أنهت هذه الاتفاقية متاعب الدولة الحفصية، مما جعل سلاطينها يتفرغون لإعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي وذلك بتأديب القبائل التي تعاونت مع الزيانيين وضمها إلى نفوذ الدولة الحفصية، وفي المقابل اختفت الحملات الزيانية نتيجة السيطرة المرينية على عاصمتهم تلمسان (٧٣٧ - ٧٤٩هـ / ١٣٣٦-١٣٤٨م)، واغتتم الحفصيون هذه الظروف لتثبيت أركان دولتهم وتقويتها، لكن سرعان ما انقسمت الدولة الحفصية ما بين ١٣٥٣ - ١٣٥٦م، وانشغل الزيانيون بإصلاح أمور بلادهم الداخلية فأدت هذه التغيرات إلى ظهور مواقف سياسية جديدة، إذ عقد أبو إسحاق إبراهيم الحفصي وأبو حمو موسى الزياني معاهدة سلام.^(٢٤) وتوج هذا التقارب بزيارة قام بها الأمير أبو عبد الله الحفصي إلى تلمسان في الثامن من جمادى الثانية سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م. وقد استغل أبو عبد الله الحفصي^(٢٥) مصاهرته مع الزيانيين للتصدي لابن عمه أبي العباس، وانتهى الصراع بينهما باستيلاء هذا الأخير على بجاية وتمكن من توحيد البلاد. والحق أنه لم تتغير سياسة الزيانيين اتجاه الحفصيين هذه السياسة التي وضع أسسها يغمراسن بن زيان وسار عليها خلفاؤه من بعده.^(٢٦)

خاتمة

تخضع العلاقات بين الدول في أي عصر من العصور إلى عدة عوامل، ومن بين هذه العوامل الاستقرار السياسي والأمني، فإذا كانت السياسة غير واضحة والأحوال الأمنية غير مستقرة، كأن تكون الدولة تعيش حرباً أهلية نتيجة حكام ضعاف أو مستبدين، فإن علاقات هذه الدولة مع الدول الأخرى تكون متأثرة بهذه العوامل. لقد تميزت العلاقات الزيانية الحفصية طوال القرنين السابع والثامن الهجري بالصراعات والاضطرابات وعدم الاستقرار، وذلك لعدة أسباب لعل أهمها ضعف الحكام الزيانيين تارة، وشدة الحملات المرينية على تلمسان تارة أخرى. إن موقع تلمسان في الوسط بين الدولتين المرينية والحفصية كان له تأثير كبير على العلاقات الخارجية للدولة الزيانية مع الدول المجاورة، إلا أن ذلك لم يؤثر على الحركة الثقافية في الدولة الزيانية والتي عرفت ازدهاراً ونموً كبيرين، كما أنها لم تؤثر على التبادل الثقافي والحضاري للدولة الزيانية مع الدول المجاورة لها.

ضربه المرينيون على تلمسان سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٨م فاستغل الزيانيون هذا الموقف وأعلنوا إنهاء ولائهم للحفصيين.

(٣) محاولة النخلص من النبعية

حاول الزيانيون إنهاء ولائهم لبني حفص وساعدتهم في ذلك الظروف العامة التي ميزت المغرب الإسلامي مثل انشغال المرينيين بمشاكلهم الداخلية عقب رفع الحصار بصفة كاملة عن تلمسان سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م وانشغال الحفصيين بخلافاتهم والاضطرابات التي كانت في أطراف دولتهم، حيث تمكن أبو حمو موسى الزياني (٧٠٧-٧١٨هـ/١٣٠٨-١٣١٨م)^(٢٧) من الاستيلاء على مدينتي دلس والجزائر سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م، في حين فشل أبو يحيى زكريا اللحياني حاكم تونس من استعادة بجاية سنة ٧١١هـ/١٣١١م، مما دفع بأبي يحيى أبو بكر الحفصي حاكم المنطقة الغربية من الدولة الحفصية إلى توجيه السعيد بن يخلف رسولا إلى أبو حمو موسى الزياني لتوطيد العلاقات بينهما ضد اللحياني.^(٢٨)

في كل مرة كان الزيانيون يحاولون بسط نفوذهم على القسم الغربي من الدولة الحفصية حتى تكتمل سيطرتهم على المغرب الأوسط، واستمرت هذه الحملات حتى استيلاء المرينيين على تلمسان بعد حصارها سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م، وفي كل مرة كانت تفشل عدة عوامل منها: ضعف وسائل الحصار وانعدام النظام والتدريب في الجيش الزياني.^(٢٩) وفي عهد أبي تاشفين الزياني^(٣٠) استأنفت الحملات الزيانية على الجزء الغربي من الدولة الحفصية، وقد شجعه على ذلك لجوء بعض شيوخ القبائل إلى تلمسان مصطحبين معهم عبد الواحد بن محمد اللحياني الحفصي حاكم مدينة المهدية^(٣١) المنفصل عن السلطة في تونس.

وضع أبو تاشفين تحت تصرف هؤلاء الشيوخ جيشاً بقيادة موسى بن علي الكردي، التقى بالجيش الحفصي الذي كان يقوده أبو يحيى أبو بكر الحفصي برغيس قرب مرماجنة^(٣٢) سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م، وأسفرت المعركة عن انهزام الجيش الزياني وفرار قائدها إلى تلمسان، وهكذا فشلت الحملة في الاستيلاء على مدينة بجاية.^(٣٣) لم يتقبل أبو تاشفين هذه الهزيمة، فجهز مرة أخرى حملة بعدما وفد عليه شيوخ من قبائل سليم^(٣٤) يستنجدون به ضد الحفصيين وأوكل مهمة قيادة الحملة إلى موسى بن علي الكردي، جمع أبو تاشفين كلمة وفد إفريقية على بيعة إبراهيم بن عبد الرحمن الحفصي، وتمكن الجيش الزياني هذه المرة من تحقيق الانتصار بالقرب من مدينة قسنطينة وتمكن إبراهيم بن عبد الرحمن الحفصي من دخول تونس بمساعدة قبائل سليم واستولى عها سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٧م.

(٤) الاستقلال عن بني حفص

تواصلت الحملات الزيانية على الدولة الحفصية في سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٥م، وفي سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م تمكنت الجيوش الزيانية من محاصرة قسنطينة والوصول حتى بونة^(٣٥) دون أي رد فعل حفصي حتى أن أبا تاشفين الزياني انتقل بنفسه سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٨م إلى

الهوامش:

- (٢٤) لم تورد المصادر نص الاتفاق الذي أبرمه الزيانيون مع أبي إسحاق إبراهيم الحفصي بل اقتصر على القول بأنه اتفاق سلام. يعي بن خلدون، المصدر السابق، ج ١، ص ٢٦.
- (٢٥) هو صهر أبي حمو موسى الزياني ومنافس أبي العباس الحفصي على الحكم. عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٨٥٤ - ٨٥٥.
- (٢٦) عبد الرحمان بن خلدون، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٧٦٠.

- (١) عبد الرحمان بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ج ٧، مطبعة بولاق المصرية، القاهرة ١٢٨٤ هـ، ص ١٧٥ - ١٧٦.
- (٢) عبد الرحمان بن خلدون، المصدر نفسه، ج ٧، ص ١٦.
- (٣) أشار ابن خلدون لبعض شيوخ القبائل مثل عبد القوي أمير قبيلة توجين الزناتية وبعض أولاد منديل بن عبد الرحمان أمراء قبيلة مغراوة. عبد الرحمان بن خلدون، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٦٠٧ - ٦٠٨.
- (٤) ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج ٣، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٧، ص ٣٦١.
- (٥) ابن عذارى المراكشي، المصدر نفسه، ج ٣، ص ٣٦٠ - ٣٦١.
- (٦) عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٦٠٧.
- (٧) التنسي، نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعباد، المكتبة الوطنية، الجزائر ١٩٨٥، ص ١١٨.
- (٨) عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج ٢، دار الثقافة، بيروت ١٩٨٠، ص ٥٠.
- (٩) عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ١٦٤.
- (١٠) عبد الرحمن بن خلدون، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٦٦٩.
- (١١) أبو سعيد عثمان: تولى الحكم سنة ٦٨١هـ/١٢٨٣م، واشتهر بتحركاته شرق المملكة لإخضاع القبائل الثائرة عليه. التنسي، المصدر السابق، ص ١٢٩. عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ج ٧، ص ٦٧١.
- (١٢) تحالف أبو حفص عمر الحفصي مع الزيانيين وحاول استثمار غاراتهم على أراضي خصمه أبي زكريا حاكم بجاية. يعي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ج ١، المكتبة الوطنية، الجزائر ١٩٨٠، ص ٢٠٩.
- (١٣) هي الوصية التي تركها يغمراسن بن زيان لابنه عثمان يوصيه فيها بالجنوح إلى السلم مع الدولة المرينية وتوسيع رقعة دولته على حساب الدولة الحفصية، وانفرد ابن خلدون بإيراد نص الوصية. عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج ٧، ص ١٨٩ - ١٩٦.
- (١٤) أبو حمو موسى بن عثمان: أقام عماد الملك بعدما أشرف على الهلاك وقارع الفوار، واقتحم الأنجاد والأغوار. التنسي، المصدر السابق، ص ١٣٢.
- (١٥) عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٧٤٤ - ٧٤٥.
- (١٦) التنسي، المصدر السابق، ص ١٤٣. يعي بن خلدون، المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٢.
- (١٧) عبد الرحمان بن تاشفين: تولى الحكم من سنة (٧١٨هـ-١٣١٨م) إلى سنة (٧٣٧هـ-١٣٣٧م). يعي بن خلدون، المصدر السابق، ج ١، ص ١٣٩.
- (١٨) المهدية: مدينة في ساحل إفريقية الشرقية، أمر ببنائها أبو عبيد الله بموضع يسمى جمة وتبعد عن القيروان بستين ميلاً ويحيط بها البحر من ثلاث جهات. الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق إحسان عباس، ط ١، مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٤، ص ٥٦٢.
- (١٩) مرماجنة: مدينة داخلية بإفريقية تقع بين بونة وقسنطينة. عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٧٦٢.
- (٢٠) عبد الرحمان بن خلدون، المصدر نفسه، ج ٦، ص ٧٦٣ - ٧٦٤.
- (٢١) بونة، مدينة بإفريقيا تقع على البحر إلى الشرق من تونس وتعرف كذلك بمدينة العناب. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٧٩، ص ٥١٢.
- (٢٢) يعي بن خلدون، المصدر السابق، ج ١، ص ٢١٨.
- (٢٣) تمت هذه الاتفاقية خلال سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م. عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ج ٦، ص ٧٧٦ - ٧٧٨.